Journal of Translation and Languages مجلة الترجمة واللغات
ISSN : 1112-3974

الأمن الفكري المغاربي بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة

بن حمادي عبد القادر
جامعة وهران–الجزائر
benhamadiaek@yahoo.fr

Abstract: *The research in the circle of the human common, when rooting the idea, of everything that is human inclusive between human beings may be purposeful and more useful, away from the artificial divisions between different races and religions across time and place. Hence, the possibility of the cultural common hypothesis may turn into a reality and experience, and the problem lies in the possession of a set of mechanisms and efforts to possess a societal culture in line with the current urban propositions and the future rhythm. Finally, the researcher concluded that it is imperative that university should exert its efforts to consolidate the concepts of dialogue and democracy in the nation's memory and educate young people to express opinion, debate, and thinking, just as university can envisage everything that is disgraceful to human thought.*

Key words*: Intellectual security, culture of change, human commonality, cultural dialogue, cultural project.*

الملخص: إن البحث في دائرة المشترك الإنساني، عند تأصيل الفكرة، لكل ما هو إنساني جامع بين البشر قد يكون هادفا وأكثر فائدة، بعيدا عن التقسيمات المصطنعة بين الأجناس والأديان المختلفة عبر الزمن والمكان. ومن هنا فإن إمكانية فرضية المشترك الثقافي قد تتحول إلى واقع وتجربة، ومكمن الإشكال هو في حيازة جملة من الآليات والجهد لامتلاك ثقافة مجتمعية تتماشى والطروحات الحضرية الحالية والإيقاع المستقبلي. وخلص الباحث في الأخير إل حتمية أن تبذل الجامعة جهودها لترسيخ مفاهيم الحوار والديمقراطية في ذاكرة الأمة وتربية النشء على إبداء الرأي وجدل الفكر والمناقشة، كما يمكن للجامعة أن تتوخى كل ما هو مشين للفكر البشري.

الكلمات المفتاحية: الأمن الفكري، ثقافة التغيير، المشترك الانساني، الحوار الثقافي، المشروع الثقافي.

مقدمة

لم تعد مفردات الحوار الثقافي، باعتبارها النموذج الأفضل للمسألة الثقافية، التي من خلالها تتم عمليات ارتقاء الأفكار، حيث تتجانس المواقف والطروحات في المجالات المختلفة. إن البحث في دائرة المشترك الإنساني، قد تبدو أكثر فائدة عند تأصيل الفكرة، لكل ما هو إنساني جامع بين البشر، بعيدا عن التقسيمات المصطنعة بين الأجناس والأديان المختلفة عبر الزمن والمكان.

إن الإنسان باعتباره بشرا له فكره وملكاته وقدراته وإبداعه، وله أيضا تفرده وتميزه ومواهبه التي يكمل بها عطاء الآخر. إن مثل هذه التكاملية تظل شاخصة في منطق الأشياء وهي ذاتها تحكي فصولا من قصة الإنسان عبر صراعه مع الكون والطبيعة، وحتى مع نفسه ومع أخيه الإنسان، لينتهي بإرادته أو حتى دونها إلى صناعة هذا التكامل أو الخضوع لذلك المشترك الإنساني بكل روافده الحضارية والثقافية والدينية، مع تواصل خبرات الشعوب وتبادل القيم والمنافع من منطلق الوعي الإنساني بكل ما يتطلبه من نبد الخلاف والانتفاع إلى منطق التلاشي والتقارب.

ومن هنا فإن إمكانية فرضية المشترك الثقافي قد تتحول إلى واقع وتجربة، وذلك هو المشترك الذي اندمج فيه العرفي مع أخيه الجورجاني دون تفرقة ولا اعتراف بحدود الإقليم والمكان ولا حتى النشأة والميلاد، فكانت الثقافة هي البوتقة الجامعة بين العرب وكبار مثقفي الأمم المشاركة في بنية حضارتهم على غرار ابن سينا والرازي والإدريسي وابن الهيثم وابن رشد والكندي والفارابي وابن خلدون...وغيرهم من أساطير الفكر الأولين، الذين صنعوا المشترك إنتاجا وإبداعا ثم قاموا بنشره وتوزيعه تأثرا وتأثيرا في ظل منظومة حركة الترجمة.

وإذا كان المشترك يمثل المسعى الحقيقي لتبادل الوعي الإنساني وتجارب الشعوب في المجالات المختلفة، فهو المنطلق الذي دفع الكثير من العلماء إلى صناعة التواصل وتكامل الخبرات في سياق المشترك العقلي والوجداني، مثل أي تصور آخر للتصادم أو الصراع. فالأصل في الأشياء هو ذلك الواقع الإنساني الذي لا يعرف ضفافا إلا من خلال تلك الشراكة الفاعلة بين قدرات البشر، وما يصدر عنهم من فكر وعلم وثقافة وإبداع.

فهل نمتلك من الآليات والجهد لامتلاك ثقافة مجتمعية تتماشى والطروحات الحضرية الحالية والإيقاع المستقبلي؟

قافة الاختلاف وقبول الآخر: آليات للتجسيد

ينطلق الفعل الثقافي من أهمية درجة الانفتاح على الآخر واحترام الرأي المغاير، مع فتح قنوات مشتركة للحوار بعيدا عن النرجسية والهيمنة والتسلط نتيجة لعمليات التعصيب والانغلاق

إن ثقافتنا المغاربية هي حوارية بالأساس وتقبل التعددية، وتنطلق من الاختلاف لتنتهي إلى التسامح والتفاهم مع الآخر، قبولا أو جدلا وهو ما يمكن أن نستشفه من تعددية المدارس،

التي كانت الأصل في انصهار وتنوع مشارب ثقافتنا، فأنتجت بذلك قضايا التقدم والحداثة الوساطة، والموازنات وكذلك حوارات النقد اللامتناهية لتولد ومن جديد عمليات الإبداع الجديدة.

إن ثقافتنا هي ثقافة إنسانية بدأت من الإنسان وانتهت إليه، فلم تعرف الانشغال بالأجناس بقدر انشغالها بثقافتهم.

لقد ترعرعت ثقافتنا المغاربية بين موروث البادية في صفائها وبقاءها وبين ضجيج حضارات أمم غابرة من يونانية وهندية لينتهي الأمر لها لصالح البعد الإنساني لأنها أولا وأخيرا ثقافة الحوار مع الآخر. فكان معظم أقطابها من غير العرب مولدا وهم عرب بلغتهم وتكوينهم ومصادرهم الفكرية، فظهر منهم حماة العروبة والمدافعون عن العرب على غرار الجاحظ وابن قتيبة.

لقد ظلت التعددية المدخل الطبيعي لمسيرة الكون وبقي الاختلاف أصلا للغة والمعيارية التي ترفض الجمود والانعزالية، ثم التقوقع والانطواء، بل ولقد بقي الاختلاف أصلا للحوار ومدخلا إلى تقدير الآخر مع تعزيز مستويات الصراع والتي تستظل حاكما لمقاصد الحياة البشرية على مدار حركة التاريخ.

ومن هنا فإن ثقافة الاختلاف ستبقى دافعا قويا لاحترام سنة الوجود وصامتا أساسيا لسيرورة الأشياء، وبذلك سيتأكد تقدير منزلة العقل البشري واحترام الفروق الفردية في نظرته للأشياء. فمن خلال منظور الاختلاف والتضاد للأشياء يظل مدخلا لاستمرار الحياة، وجزءا لا يكاد يتجزأ من مقوماتها حيث تجانست مدارس التجديد مع مدارس المحافظين وكان هذا هو المدخل الفاعل للقبول الآخر.

المشروع الثقافي والبعد الإنساني المغاربي:

لقد استمر المشهد للبناء الثقافي قائما في تحديد الفكر المغاربي، من خلال إقحام المؤسسات المختلفة والمجتمع المدني بثقله في المعترك السياسي والإنساني، دفاعا عن حقه في الاستمرارية والمشاركة أملا في بناء مشروع وطني يحتوي الهاجس المستقبلي لفكر الأمة ويضمن نجاح الرهان على تحديد دورها عبر ثقافة الفعل والإنجاز وتعزيز دراسة المشترك الإنساني مدخلا حوار دون صراع.

لقد كان لتعزيز ثقافة الاعتراف ورفض ثقافة الجحود مدخلا حادا لضمان الانفتاح والتواصل، انطلاقا من تعدد التوجهات من الليبرالية وإسلامية وقومية ووطنية دون وقوع في دائرة الفوضى الذهنية ودون اقتصار على الثقافة النخبوية بقدر الانطلاق إلى تأسيس الثقافة المجتمعية الهادفة وإدراك مفاهيم الديمقراطية والتنمية والعدالة وتعزيز منظومة الجدل بين معطيات التجديد الحضاري وإحياء الموروث العربي المغاربي، بعيدا عن السيطرة والهيمنة، وبمنأى عن التباهي والاستعلام من جانب أو الدهشة والابتكار من جانب آخر.

ولكن الأهم من كل هذا كله، أن نجد مؤسساتنا الفكرية تتبني ثقافة واقعية لدراسة الفكر المغاربي وهمومه ومشكلاته وتناقش أبعاده وفلسفته، لتحاول استجلاء حقائقه تاريخيا، حاضرا ومستقبلا. كما أنها ثقافة تطرح رؤى لمعالجة البعد المستقبلي من خلال تعددية فكرية ملموسة من كل المدارس والاتجاهات، من وسطية ويمين ويسار دون حجر عن رأي أو مؤاخذة على رؤية أو تعطيل لاتجاه أو تحيز لنمط. ومن خلال ذلك تبدو مؤسساتنا الفكرية أشبه ما تكون بدار للحكمة تحترم المشترك الثقافي والإنساني، إيمانا منها بتلاقي الوحدة والتنوع دون تناقضات.

ومن خلال هذا الطرح فإن ثقافتنا تغدو رحبة واسعة الآفاق ومن شأنها أن تقبل التعددية دون احتكار أو احتقار؛ وبعد ذلك تصبح بمثابة الموسوعة العميقة القادرة على تحقيق التواصل والبقاء، على الرغم من المحن التي حاولت النيل منها عبر حملات الاستعمار والاحتلال في القرن الماضيين.

الإبداع الفكري وثقافة التغيير

تستدعي الضرورة ألا تتخلف الأمة على السبق الحضاري الذي هو في سجلها عبر التاريخ على مدار قرون من الزمان، حيث تحدث بها كل المختصين من أطباء ومهندسين وصيادلة ورياضيات وفلك بلغة الضاد. إلى جانب ما حققوه في حقول المعرفة والعلوم الإنسانية عبر كبار الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتاريخ مع فيض الإبداع في الأنواع الأدبية الأخرى، التي ارتقى فيها الفكر المغاربي بصورة متميزة.

إن الأحداث الجسام وآثار الهجمات الاستعمارية الملاحقة على الإرث الثقافي العربي تجعل من الأمة المغاربية الاستسلام للغرب الذي تقدم علميا وتكنولوجيا، لاسيما تلك التي أصبح لها شأن كبير في مجال الاختراعات اليومية والتي تجسد ثقافة الغلبة والإقناع. فبات

من الواجب محاولة اللحاق بالمركب ومحاولة تجاوز مرحلة الركود والجمود العلمي، مع الأمل المتجدد في استعادة جزاء من النبوغ والتفوق التي حققها الرواد والشوامخ وبفضلها سادوا العالم شرقا وغربا.

ومن هنا فإن ضرورات التغيير لاستيعاب المتغير العالمي أصبحت أكثر من مطلب، فهما لثقافة الآخر المحيطة بنا، وإدراكا لمدلولاتها للإفادة منها دون انغلاق أو عنصرية ودون استسلام للصراع ودون التبعية المطلقة التي قد تفقدنا الهوية أو تهدد كياننا. إن الأمر يستدعي إذن إيجاد مزاوجة هادفة على مواكبة المتغير والثقة بالذات مع استدعاء الموروث حوارا وجدلا وتجديدا وابتكارا وإضافة ومعاصرة. إن التعاطي مع هذه المعادلة التي تبدو من حيث الظاهرة صعبة ومعقدة قد تحتاج كثيرا من سعة الأفق ووضوح الرؤى إلى فهم الآخر والترحيب بكل عطاءاته متى امتلكنا حق الاختيار أو وظفنا حرية الانتقاد مع القدرة على التمييز مع كل ما يتماشى مع أصولنا وجذورنا دون الاقتراب من غياهب التهميش أو التغييب.

فبحكم التطور الهائل في ثروة الاتصالات والمعرفة لنقل الخبر والفكر والإبداع سرعة مذهلة، فإن الأمر يستدعي ضرورة التفاعل والتثاقف والاحتكاك والتلاحم.

ولمواجهة ضغوط الحياة المعاصرة من خلال أكبر قدر من الكفاءة الجماعية، وفي ظل أي من الاعتبارات، يظل واجها احترام الثوابت الضامنة بعدم ذوبان الذات الوطنية أو القومية حتى في عباءة الآخر أيا كان حجم التحديات أو تباعد المسافات أو اتساع الفجوة بين المتقدم وغيره. إن الاعتراف باتساع التباعد المعرفي بين صناع العلم ومنتجي المعرفة ومستورديها ومستهلكها بات أمر مفروغ منه، ولكنه قد لا يكفي لمواجهة أزمة التغيير أو حتى ضرورة تجاوزها إلا من خلال وعي الذات بجوهرها وإعادة قراءة الواقع من خلالها ومحاولة إقحام المستقبل من خلال رؤى واضحة المعالم بعيدة عن مستوى الانغلاق والتقوقع.

المشترك الثقافي ومستقبل بناء المشروع المغاربي النهضوي

إن البداية الحقيقية للبحث في عمق الإبداع المشترك ومجالاته وتحليل آلياته، تنطلق أساسا من تقدير دور الجامعات في ظل تأصيل المفهوم الجديد بدورها المجتمعي إلى جانب دورها الأكاديمي بشكل غير نمطي، حيث يستطيع البحث الجامعي الموضوعي أن يؤسس لمنظومة ذلك التعاون المتوقع بين الشعوب المغاربية لاسيما إذا امتلكنا زمام الحوار بشكل فعلي بعيدا

عن التصادمية ومنطق الصراع وهو ما كان شأن ثقافتنا دائما في صيغ انفتاحها على الدنيا دون تحفظ أو مزايدة أو استعلاء.

وحتى يكون للدور الجامعي فاعلا، فإن الاطمئنان إلى طبيعة النوعية من حيث الجدلية والاستنارة تكون مضمونة، وبالتالي إعلاء قيم الوعي الإنساني من حيث الموضوعية وصحة المنهج ودقة النتائج مضبوطة.

ولعل الاندفاع المنهجي أيضا نحو رؤية المستقبل يبدأ من وضوح الرؤية وتجدد ذلك المشترك الثقافي في بعده الإنساني الرفيع، بين القبول والتأثير والتأثر وبين محاور الأخذ والعطاء إلى احترام الانفتاح الذهني والدعوة إلى إعمال الفعل والفكر في صورة استثنائية رحبة محورها الموضوعية وأساسها سلامة المنهج وصحة النتائج وعدم تزيف حقائق التاريخ وتفسيراته.

إن مثل هذا الاندفاع يظل ضمانا لصحة مسار الأمة من خلال قيادتها الفكرية الواعية، بعيدا عن العشوائية والارتجال، إذا أردنا أن نحقق بالفعل خطوة جادة نحو بناء مستقبل أفضل، وهو ما يمكن اعتباره عاملا مؤسسيا لإيجابيات الواقع وآليات المستقبل وبناء الثقة بالذات.

إن بناء الثقة بالذات من خلال التواصل الزمني هنا يمثل جزءا لا يكاد يتجزأ من التواصل الإنساني في كل صوره وإشكاله ومستوياته وأنماطه.

الحوار الثقافي المدخل الآمن للتواصل والانتماء

لكي تتحقق ثقافة الثقة في الذات، ويتم تقدير كل المرتكزات الثقافة في تاريخ الأمة المغاربية بما لها من أهمية، يجب على المؤسسات والهيئات العلمية أن تهتم بالمادة القرائية التي تمجد أقطاب العلوم في فترة مدها وازدهارها كما أنه يمكن فتح أبواب الاجتهاد دون الابتكار في القراءات التراثية، من حيث الإحياء والتبسيط والشرح والتحليل والتعليق مع الانطلاق من روح عصرية مبسطة تدفع بالموضوع إلى وجدانية وترسخ في الذاكرة الوطنية وتعطيه صورا من الأصالة والتجديد، مع تأصيل مستحدث عصري من خلال تعددية الرأي والأفكار لضمان الاستغلالية وإعداد جيد من المحققين يدرك يجدا حجم التبعية وأمانة الرسالة وخطورة المشروع الفكري في زحام ثقافة أخرى التي بات واجبا منها الإلمام بمقومات الثقافة المغاربية ومحاولة اللحاق بمناهج ثقافة الآخر والتمسك بنتائجها.

نحو عقل متجدد ولمجتمع متجدد:

إن واقعنا التعليمي ومع ما حدث فيه من تطور ملحوظ ما يزال أسير ثقافة الذاكرة ومرجعية للسلطة. فعمليات التذكر والحفظ والاجترار للرصيد المعرفي هي المنطلق الأساسي للمتعلم ونقله من جيل إلى جيل.

وليس غريبا أن نجد في موروثنا الثقافي لمصادر المعرفة ظهيرا يبرز ويسند الاعتماد على الأستاذ والكتاب والمقرر والامتحان، فيما تحفظه الذاكرة وتختزنه وتردده، وهو ما نجده مبالغة في إيراد المراجع والاقتباس منها في الرسائل الجامعية إلى الحد الذي لا نجد للباحث رأي خارج المقرر.

وفي جامعتنا ومدارسنا المتخصصة من الأساتذة ممن ختموا العلم، فلا يأبهون بمراجعة أو تجديد أفكارهم بمجرد أن يبلغوا مرتبة الأستاذية، حيث يستمرون في اجترار ما تعلموه وعلموه منذ عشرات السنين وتدوينه في كتبهم ومذكراتهم أن يبرز عملية تحريك ثنائية الثقافة والتعليم لعمليات التنمية بصفة عامة وترقية القدرات البشرية بصفة خاصة من خلال:

- التركيز على نقلة نوعية من مجرد التفكير المعتمد على الحفظ والتلقين والتكرار والاجترار في نصوص الماضي أو الحاضر وموضوعاتها، ذلك أن الإنسان كائن ثقافي يصنع حياته كما تصنعه حياته وأن سعيه الدائب ونجاحه من خلال العلم الحديث ومناهجه يستهدف إقداره على مزيد من معرفة فاعلية، ليوظفها من أجل حياة أفضل وإلى أن يتحكم في الوقت ذاته في تلك المعرفة التي قد تلقي بمخاطر غير محسوبة على حياته وأمته.
- إن تيارات العولمة قد تقذف بعمليات التفكير الماضوي الإجتراري لتنظيماتنا الثقافوية والتعليمية، ومن ثم لا تجعلنا قادرين على اكتساب مناهج التكييف والتكيف والمراجعة والتطوير لواقعنا بما يحقق لمجتمعنا البقاء والرخاء، إذ يفترض أن يكون أداة لتنمية التفكير الملائم لعصر المعلومات.
- إن أهمية المنهج العلمي يرتكز على مبدأ تكامل النظريات العلمية للاقتراب إلى أقصى ما تستطيعه في التشخيص والفهم من خلال تشابه العلاقات وتداخل المكونات، وذلك هو المبرر لأهمية ما يسمى بالدراسات البينية عبر التخصصات ومن خلال

منظور العلوم المختلفة الذي يتحقق من خلالها تفكيرها المشترك: **تحقيق الذكاء الإنساني الجماعي** الذي يؤدي إلى نتائج أكبر وأعمق بكثير من نتائج مجموعة أفراده.

- إن التوظيفات المختلفة للكمبيوتر ومعايشة عصر من خلال مواقع الإنترنيت من معلومات تجارية أو زائفة أو غير موثقة. وفي جميع الأحوال فإن المنهج العلمي في عملية التعليم والتعلم أو بصفة أشمل البحث العلمي. والأهم من ذلك اكتساب المعلومات وأعمال الفكر فيها وتوظيفها التوظيف الأمثل في حل المشكلات أو نتائج المعارف الجديدة.
- إن التركيز على رصد نتائج الحوار وأدواته وتوجيه آلياته إلى ما هو نافع عبر مختلف نتائج الدراسات ومشتقاتها بعيدا عن الجدلية أو التعصب للرأي الآخر، فإن الضرورة تستدعي الاستخدام الجاد لمختلف البرامج التنموية خدمة للمجتمع العلمي والارتقاء بالمستوى القيمي بعيدا عن الفوضى والمهاترات أو المبالغة في تصوير الحقائق.
- ففي زحام كثرة الاتجاهات وتضارب الأفكار وإملاءات الفضائيات وتضخم ثورة الاتصالات وتدفق المعلومات بشكل يتطلب قفة تأمل ومراجعة لكل ما هو قومي ووطني وإنساني في سبيل تحقيق رؤية أوضح ورسم خطوات منهجية دقيقة بعيدا عن الارتجال والعشوائية وبمعزل عن الفوضى والتجاوزات.

خاتمـة

إن ما ينبغي الوصول إليه هو أن تبذل الجامعة جهودها لترسيخ مفاهيم الحوار والديمقراطية في ذاكرة الأمة ووجدانها وتربية النشء على ممارسة حرية التعبير وإبداء الرأي وجدل الفكر والمناقشة والتعامل بالمداخلات بدون خطوط حمراء أو تعطيل مستوى الحوار كما يمكن للجامعة أن تتوخى كل ما هو مشين للفكر البشري من فوضى البث العالمي بمناطق حصانة التي تكون سدا مانعا لمختلف الثقافات الانعزالية والتي من شانها أن تبعد التواصل والاستمرارية بثوابت الأمة من مواطنة بناءة وانتماء فعلي وتثاقف مع الغير بالتلاقي في السياق المشترك والثقة بالذات بمعرفة الآخر دون تعصب أو انغلاق أو جمود.

وكنتيجة لذلك، فإن ثورة المعلومات باعتبارها من أهم خصائص العولمة تتطلب ترسيخ معلومات التفكير العلمي ومناهجه وتداخل إنتاجه من التخصصات حتى يتحقق التحرير من الانغلاق بالنسبة للتفكير الا جتراري أو البنكي، حيث يتم إيداع المعلومات واسترجاعها عند

الطلب وهذا يستلزم الانعطاف بالعملية التعليمية، لكي تكون أداة جسر في تحديد الواقع وتطويره من خلال فهمه وتحليله ونقده وحل مشكلته، وصولا إلى الإبداع في تقديم البدائل حاضرا ومستقبلا، وتلك هي الاستراتيجية المطلوبة لجعل صياغة التفكير كمحور للعملية التعليمية وجعله معيارا للمعرفة نظريا وإنتاجا، ثم استهلاكا وتطبيقا.

قائمة المصادر والمراجع

[1]هربرت شيلر: الإتصال والهيمنة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993.

[2]سيرج لاتوش، تغريب العالم المؤسسة المغاربية للنشر والإبداع، المغرب 1993.

[3]حسن كامل بهاء الدين، الوطنية في عالم بلا هوية (تحديات العولمة) دار المعارف القاهرة 2000.

[4]على حرب، حديث النهايات فتوحات العولمة ومأزق الهوية، المركز الثقافي المغاربي الدار البيضاء، المغرب 2000.

[5]عاطف السيد، العولمة في ميزان الفكر مطبعة الانتصار الإسكندرية 2001.